تعبيرات الوجه ودورها البياني في الحديث النبويّ الشريف

كمال عبد الرؤف كامل عبد الغني (*)

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على النبيِّ الأميِّ الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد،،،

فإنَّه لا خلاف في أنَّ اللسان هو أداة البيان الأولى والأعلى، التي يُعبِّر بها الإنسان عن مراده، وهو الوسيلة الأولى التي استخدمها الرسل عليهم السلام في تبليغ رسالاتهم، يقول الله تعالى: "وَمآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشآءُ وَيَهْدِي مَن يَشآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [إبراهيم: ٤].

ولكن ثمة وسائل أخرى تأتي أحيانًا معاونة للسان في تأدية مهمته، وتأتي أحيانًا أخرى بديلة عنه، كالإشارة والإيماء والرسم والتخطيط، وتعبيرات الوجه، وقد تؤدي هذه الوسائل في مواقف معينة ما يؤديه اللسان، وتصبح في مواقف أخرى أهمّ وأبلغ من الكلام.

والمتتبع لأحاديث النبيّ ﷺ يجده قد استعان بهذه الوسائل في مهمته التعليمية التبليغية التي بُعث من أجلها.

لذا فإنَّني رأيت أن أتناول في هذا البحث إحدى هذه الوسائل - وهي تعبيرات الوجه – بالتحليل، في محاولة للوقوف على بلاغتها وبيان دورها في الحديث النبويِّ الشريف من خلال الأحاديث الواردة في الصحيحين.

فجاء البحث بعنوان :" تعبيرات الوجه ودورها البيانيّ في الحديث النبويّ"

أهمية الموضوع وبواعث اختياره

- تكمن أهمية الموضوع في أنَّه يقف على وسيلة من الوسائل المهمة التي استخدمها النبيّ ﷺ في تبليغ دعوته.
- الرغبة الملحَّة في خدمة السنة النبوية المطهرة .

(*) باحث دكتوراه – قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة سوهاج.
هذا البحث من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: "أساليب التبليغ النبوي من خلال الصحيحين دراسة بلاغية تحليلية". وتحت إشـراف: أ.د/ بهاء محمد محمد عثمان- كلية الآداب- جامعة سوهاج & د. زياد محمد عبدالعال الجبالي – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

- الرغبة في معرفة مدى تأثير هذه اللغة غير المنطوقة في المتلقين .

أهداف البحث

- لفت الأنظار إلى وجود لغة الجسد عامة، وتعبيرات الوجه على وجه الخصوص في البيان النبوي .
- إثبات قضية مهمة وهي أنَّ هذه اللغة الصامتة لا تقلُّ بيانًا عن اللغة المنطوقة من خلال أحاديث النبيّ ﷺ.
- فتح آفاق جديدة أمام الباحثين في الحديث النبويِّ الشريف لدراسة هذا الجانب غير اللفظي في سنة النبيِّ ﷺ.

الدراسات السابقة:

لم يوجد على حد علمي من تعرض لموضوع تعبيرات الوجه في الحديث النبوي الشريف من الناحية البيانية ولكن الباحث اطلع على بعض الدراسات السابقة التي تتبعت لغة الجسد أو اللغة غير المنطوقة في القرآن والحديث مثل:

- الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، للدكتور محمد الأمين موسى.
- لغة الجسم وأثرها في الإبانة: نماذج من التراث اللغويّ والبلاغيّ: مهدي أسعد عرار.
- دراسات لسانية في الحديث النبوي للدكتور أحمد عارف حجازي.

منهج البحث

اقتضى موضوع البحث منهجًا وصفيًا تحليليًّا؛ فإنَّنا بصدد وصف ظاهرة موجودة في الحديث النبويِّ الشريف، ثم تحليل مواضع هذه الظاهرة للوقوف على بلاغتها ودورها في تأدية المعنى .

خطة البحث

اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة وبيانهم كالآتي:

التمهيد: تحدثت فيه عن أهمية تعبيرات الوجه، ثم تعبيرات الوجه عند القدماء وعند علماء النفس، ثم تعبيرات الوجه من الوجهة البلاغية ودور السياق في تحديد أغراضها البلاغية ودلالاتها، ثم تعبيرات الوجه في الحديث النبويّ الشريف.

أما عن فصلي البحث:

فالفصل الأول: بعنوان تعبيرات الوجه الإيجابية (الضحك والتبسم) ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تحدثت فيه عن الغرض الأساسي للتبسم وهو (الرضا والسرور).

المبحث الثاني: ذكرت فيه الأغراض البلاغية التي يخرج إليها التبسم ويشمل: التعجب، التصديق والتقرير، الموافقة.

الفصل الثاني: بعنوان تعبيرات الوجه السلبية: (الغضب)

ثم الخاتمة وفيها أهم نتائج الدراسة ثم المصادر والمراجع .

التمهيد

تُعد تعبيرات الوجه لغة غير منطوقة تساعد على التواصل بين البشر فهي بمثابة قراءة داخلية لما يحدث داخل النفس البشرية من انفعالات، ونستطيع من خلال قراءة هذه التعبيرات داخل سياقاتها وما يُصاحبها من قرائن - كاحمرار الوجه أو اسوداده أو شحوبه - أن نعرف نوع الانفعال المتسبِّب في هذا التغيير، فالابتسامة في معنى الفرح، والكِشرة في معنى الحزن، وتقطيب الوجه في معنى الغضب.

ولا نغالي إن قلنا: إنَّ الرسائل التي تُقرأ على الوجه وتُستقى من تعبيراته هي في الغالب أصدق من اللفظ؛ فالإنسان يستطيع أن يتحكَّم فيما يقوله، ولكنَّه لا يستطيع دائمًا أن يتحكَّم في انفعالاته، "فقد يحاولُ المرء أن يستعين بلغة الجسم ليقول بها خلاف ما يضمر، وما يُخفي صدره أكبر وأنَّى له ذلك إلا في القليل النادر.. فكثيرًا ما نسمع أو نقولُ: "لسانه يقولُ لي أهلًا وسهلًا، وتعابير وجهه بخلاف ذلك"[١].

وقد يُنكر الإنسان غضبه، ويقول: إنَّه فَرِح، ولكنَّه لا يستطيع أن يُخفي علامات الغضب البادية على وجهه، "وذلك لأنَّ الأعصاب والعضلات التي تنتشر تحت بشرة الوجه كثيرة جدًا ولا تبعد إلا سنتيمترات قليلة عن مركز الدماغ، وبذلك تظهر حركات الوجه التعبيرية مباشرة وسريعًا، حتى لو حاول الشخص المعني ببذل المستحيل لإخفاء تلكم التعبيرات"[٢].

---

١ - لغة الجسم وأثرها في الإبانة: نماذج من التراث اللغويّ والبلاغيّ: مهدي أسعد عرار، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجّلد ٣٣ ، العدد ١، ٢٠٠٦، صـ١٠٨.

٢ - كيف تقرأ أفكار الآخرين من خلال حركاتهم: هنري كالرو، صـ٢٦.

وحول هذا المعنى جاء قول ابن زيدون:[من البسيط]

يُخْفِي لواعِجَهُ والشَّوقُ يَفْضَحُهُ فَقَدْ تَسَاوَى لَدَيْه السِّرُّ والعَلَنُ

فالشاعر يحاول جاهدًا أن يُخفي أشواقه وحبه المحرق، ولكن تأثير الشوق الظاهر على وجهه يكون سببًا في افتضاح أمره.

لذا فإنَّني يرى أنَّه إذا تعارض القول مع تعبيرات الوجه، فإنَّنا نميل إلى تصديق تعبيرات الوجه؛ فإنها تُعبِّر عن نوع الانفعال الحقيقيِّ، ومن ثمَّ يمكن الوقوف على الدوافع التي وراءها، "فلا شكَّ أنَّ أي فعل من الأفعال، يصدر عن الإنسان العاقل، لابدَّ وأن يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالدوافع الباعثة على هذا الفعل، ولا يمكن أن يتصور صدور عمل من إنسان عاقل بلا سبب أو دافع إلا من المجنون، وأفعالنا تعبر عمَّا في نفوسنا"[١].

كما أنَّها - تعبيرات الوجه - لغة مشتركة بين البشر جميعًا على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وألسنتهم ومذاهبهم وبيئاتهم، فالانفعالات لغة عالمية لا تختلف باختلاف الألسن أو الثقافات أو البيئات، فالجميع ينفعلون بنفس الطريقة ولنفس الأسباب غالبًا، فتبدو عليهم نفس العلامات، وفي ذلك يقول بول إيكمان: "إنَّ ما هو عام أو مشترك بين أفراد الجنس البشري من تعبيرات الوجه، هي الأوضاع المعينة التي تتخذها عضلات الوجه عندما يُعبِّر الشخص عن انفعال معين"[٢].

تعبيرات الوجه عند علماء النفس :

نالت تعبيرات الوجه حيِّزًا كبيرًا من كتابات العلماء وخاصة من المتخصصين في لغة الجسد والتنمية البشرية، وعلماء النفس من الغربيين، فهم يعدُّون الوجه بمثابة مصدرًا للبيانات المتعلقة بالحالات الانفعالية للإنسان، وينظرون إلى تعبيرات الوجه على أنَّها "مظهر خارجيّ يساعد الآخرين على قراءة الانفعال وفهم دلالته"[٣]، فكما يستطيع الإنسان أن يُعبِّر بعينيه عمَّا يريد، ويستطيع أن يستكشف ما في نفوس الآخرين من خلال التأمل في نظرات عيونهم، فإنَّه يستطيع أيضًا أن يفعل ذلك من خلال تأمل قسمات الوجه، "حيث يُعدّ الوجه والرأس أغنى أنظمة الرموز عند الإنسان، ويعدُّ بعضهم الوجه مفتاح

١ - سيكولوجية السعادة، مايكل أرجايل، عالم المعرفة، ١٩٩٣م، صـ١٧١.

٢- Press Cf. Paul Ekman, Wallace Friesen and P. Ellsworth, Emotion in -the Human Face, New York Pergamon, 1972, p16.

٣ - يُنظر: سيكولوجية السعادة: صـ ٧٢.

الأحاسيس، ويُتحدث عن إمكانية إصدار الجهاز العضلي الوجهي لنحو(٢٠٠,٠٠٠) - مائتي ألف - تعبير وجهي مختلف"[١]

"وقد قام فريق من الباحثين بتصنيف وتمييز (١٣٥) - مائة وخمس وثلاثين -إيماءة وتعبيرًا على الوجه وحركة بالرأس والجسم"[٢].

أمَّا "الأبحاث الحديثة فقد حصرت الانفعالات الأساسية لدى الإنسان في ستة انفعالات هي: "البهجة والحزن والاشمئزاز والخوف والغضب والدهشة"[٣].

وذكر بعض العلماء أنَّ أعضاء الوجه لا تعمل منفردة "فالوجه في مجموعه يكون نظامًا متكاملًا، فالجبهة والعينان والأنف والأذنان والشفتان والذقن والفم، توجد فيما بينها علاقة متبادلة، بحيث تؤدي جميعًا أعمالًا وظيفية، لا يمكن لأي منها أن يؤديها وحده أبدًا، بالإضافة إلى ما يسهم به كلٌّ منها في تكوين المظهر الكليّ للوجه، والذي تؤدي تعابيره دورًا مهمًا بوصفها مصدرًا للبيانات المتعلقة بالحالات الانفعالية للإنسان، كحالات الفرح والخوف والدهشة والحزن والغضب والاشمئزاز والازدراء"[٤].

تعبيرات الوجه من الوجهة البلاغية

تمثل تعبيرات الوجه جزءًا مهمًّا من بلاغة المُتحدِّث فهي إحدى أهمّ الأسس التي يحتاج إليها حين يرغب في مراعاة حال المتلقين، فالوجه يُعبِّر كاللسان، وهو واجهة المُلقي واللوحة التي يقرأ عليها المتلقون مضمون الرسالة، وتعد طلاقة الوجه المصاحبة للكلام لونًا من ألوان البيان "فقد كان الرسول الكريم ﷺ يخاطب حضوره بما يدركون، فيُفهِم البدويّ الجافي، بما يناسب جفاءه وقسوته، ويُفهِم الحضريّ بما يلائم حياته وبيئته، كما أنَّه يراعي تفاوت المدارك وانتباه أصحابه وقدرهم الفطرية، والمكتسبة فتكفي منه الإشارة للألمعيِّ الذكيِّ واللمحة العابرة إلى الحافظ المجيد"[٥].

---

١ - اللغة واختلاف الجنسين: أحمد مختار عمر، مكتبة لسان العرب ط١ ١٩٩٦م، صـ١٤١.
٢ - كيف تقرأ أفكار الآخرين من خلال حركاتهم: هنري كالرو، صـ٢٦.
٣ - انظر: ، لغة الحركات: نتالي باكو ، ط ١، ترجمة سمير شيخاني، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٥ م، صـ٦٢.
٤ - Cf. Paul Ekman, Wallace Friesen and P. Ellsworth, Emotion in the Human Face, New York Pergamon Press, 1972, p50).
٥ - أصول الحديث علومه ومصطلحه، ص٤١.

ومن الناحية الأخرى فإنَّه يجب على المُلقي أن يكون واعيًا مُجيدًا لقراءة وجوه المتلقين؛ حتى يعلم ما يناسبهم من إيجاز أو إطناب أو غير ذلك، فقد يُضطر الملقي إلى إنهاء حديثه دون إتمامه؛ لأنَّه قرأ في وجوه المتلقين عدم التقبل أو الملل والسأم.

فقراءة تعبيرات الوجه ركيزة مهمة في توجيه الرسالة المناسبة في الوقت المناسب، كم أنَّ في استخدامها مخاطبة للأحاسيس والمشاعر ولا شكَّ أنَّ ذلك أقوى في التعبير وأفضل في تثبيت الرسالة في أذهان المتلقين وقلوبهم.

دور السياق في تحديد دلالة تعبيرات الوجه

يلعب السياق دور المفسِّر والمترجم لما يبدو على الوجه من علامات فهو إن كان عمدة في فهم النص المكتوب فهو أيضًا عمدة في قراءة علامات الوجه، حيث تصعب قراءة الانفعالات خارج سياقاتها، فخروج التعبير الوجهيّ خارج سياقه يجعله غير ذي معنى محدد، بل يؤدي إلى تشتت ذهن المتلقي، فإذا جاءت في سياقها تحدَّد المعنى المراد منها، فاحمرار الوجه مثلًا قد يكون منبئًا عن الخجل أو الخوف أو الغضب أو الفزع، وإذا مررنا برجل مبتسم، فإنَّنا لا نستطيع تحديد دلالة هذا التبسُّم إلا إذا وقفنا على السياق الخارجي لنعلم هل هذا التبسُّم تبسُّم فرح أم تبسُّم تعجب أم تبسُّم غضب أم غير ذلك.

وكذلك الأمر بالنسبة للبكاء فقد يكون البكاء بكاء حزن أو بكاء خشية أو بكاء شفقة، وقد يكون بكاء فرح، وقد يكون بكاء كذب وحيلة كما حدث مع أخوة سيدنا يوسف عليه السلام بعدما ألقوه في غيابة الجُبِّ، قال تعالى:" وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ" [يوسف:١٦]، فرجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل، وقد لطَّخوا قميصه بالدم وأخذوا يتباكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، وزعموا أنَّ الذئب قد أكله، ولكن سيدنا يعقوب عليه السلام علم كذبهم لأنَّهم نسوا أن يخرقوا الثوب ويشّقوه إذ لو كان من افتراس الذئب لتمزق القميص، "فقال يعقوب عليه السلام: "إن كان هذا الذئبُ لرحيمًا! كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه؟""[١].

فعلم من خلال القرائن والملابسات المحيطة (السياق الخارجي) أنهم كاذبون وأن بكاءهم بكاء كذب واحتيال .

١ ـ تفسير الطبريّ ١٥/٥٨٠.

"فتعدد المعاني التي يحملها تعبير الوجه تجعل من الصعب علينا أن نستشرف مدلوله على وجه الإحكام والتعيين إلا بالسياق الذي يرد فيه هذا الدالُّ الحركي؛ السياق الثقافيّ والحاليّ والقرائن الاجتماعية التي تحتفُّ بها"[١].

تعبيرات الوجه في الحديث النبويِّ الشريف

نظرًا لكون مهمة النبيِّ ﷺ هي في الأصل مهمة تعليمية، فقد استخدم ﷺ جميع الوسائل التي تعينه على تلك المهمة، ولا يمكن بحال إغفال انفعالات الرسول ﷺ فضلًا عن ملامح وجهه الشريف، "فهي مصدر من مصادر التشريع، فرؤية الغضب مثلًا في وجهه الشريف قد تؤذن بالقول: إنَّ ما كان سببًا باعثًا على ذلك محرَّم يؤثم فاعله، أو مكروه يندب تركه، والأمر بالضد في دلالة الفرح أو القبول"[٢].

فقد كان ﷺ يستخدم تعبيرات الوجه كأداة تبليغية، وفي أحيان أخرى كأداة مساعدة للَّفظ أو الحركة ومعينة لهما على أداء المهمة، ولذلك حرص الصحابة رضوان الله عليهم على قراءة تلك الانفعالات قراءة صحيحة؛ لأنَّهم يعلمون جيدًا أنَّها لم تأتِ عبثًا، وإنما جاءت لتحمل رسائل تبليغية، فعن أبي سعيد الخدريِّ ﷺ، قال: كان النبيُّ ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه"[٣].

حتى إنَّنا لنجدهم يحددون نوع التعبير الانفعاليِّ البادي على وجهه الشريف، فنراهم مثلًا يفرقون بين تعبير الغضب وتعبير الكراهية، مع شدة القرب بين هذين التعبيرين، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: قسم النبي ﷺ قسمًا، فقال رجل: إنَّ هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبيَّ ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه."[٤]

لذا حرص الصحابة ﷺ على نقل تلك الانفعالات نقلًا صادقًا، يظهر ذلك في ترديدهم كثيرًا من الألفاظ التي تحمل دلالات انفعالية، مثل قولهم: فتبسم النبيُّ ﷺ، وتبسم تبسم المغضب، ضحك النبي ﷺ، تبدو على وجهه علامات الغضب،

---

١ - لغة الجسم وأثرها في الإبانة: نماذج من التراث اللغوي والبلاغي: صـ١٠٨ .
٢ - ينظر البيان بلا لسان: مهدي عرار، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٤٢٨ ه صـ٢٠٩.
٣ - صحيح البخاري: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الصفا، ط١، ٢٠٠٣م (٣٥٦٢) ١٨٦/٢، و"صحيح مسلم" تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الصفا ط١ ٢٠١٤، (ح٢٣٢٠)، صـ٦٢٧.
٤ - صحيح البخاري: (ح ٣٤٠٥) ١٥٥/٢، و"صحيح مسلم" (ح١٠٦٢)، صـ ٢٦٧ .

تبدو على وجهه علامات الكراهية، فاحمر وجهه، فتلون وجهه، وتمعر وجهه ..إلى آخر هذه التعبيرات .

ولأهمية هذه التعبيرات وكونها جزء من بلاغة النبي ﷺ فإنني رأيت أن أقف عليها بشيء من التحليل لنرى كيف وظَّفها النبيُّ ﷺ توظيفًا دقيقًا ماتعًا ممتعًا لتكون عاملًا مهمًا في عملية التبليغ، وقد رأيت أن أسير على تقسم العلماء لهذه التعبيرات إلى قسمين[١]:

الأول: تعبيرات إيجابية: وتظهر في الضحك والتبسم.

الثاني: تعبيرات سلبية: وتظهر في الغضب.

الفصل الأول

التعبيرات الإيجابية (الضحك والتبسُّم)

يُعدُّ التبسم أو الضحك من التعبيرات التي تدلُّ – في الغالب - على السرور، ولا يختلف اثنان على أنَّ أقصر الطرق إلى أدمغة المتعلمين تمرُّ عبر قلوبهم، والمعلم الحاذق لا تخفى عليه هذه الحقيقة، فيسعى سعيًا حثيثًا ليحظى بحب تلاميذه وإزالة الحواجز النفسية بينه وبينهم، وليس هناك أفضل من التبسُّم لفعل ذلك الأمر، الذي يقوي علاقة الحب بينه وبين المتعلمين، وهو لون من ألوان الذكاء العاطفي الذي يقول فيه عالم النفس دانييل جولمان: إنَّ أهميته تعادل ضعف أهمية الكفاءة المعرفية، وأنَّه من المحددات الرئيسة للتفوق في الحياة.[٢]

وقد كان النبيُّ ﷺ حريصًا على إدخال الفرح والسرور والبِشر على أصحابه، فكانت البشاشة خلقه المميز، وطريقته المعروفة، فقد وُهب ملكة ربانية تعينه علي مزاولة البشاشة - خُلقًا لا تصنُّعًا- في كل أحواله، فهو في معمعة الحرب يرى "أم أيمن" حاضنته، فيبشّ لها، ويبتسم في وجهها، ويقول الحارث بن جَزْءٍ الزُّبَيْدِيَّ يقول:" ما رأيت أحدًا كان أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ "[٣]

ولم يكن تبسم النبيِّ ﷺ أو ضحكه مُجردًا عن العملية التبليغية التي بُعث من أجلها، أو بعيدًا عنها، وإنَّما كان يحمل في طيَّاته رسائل تتنوع حسب السياق.

١ - ينظر: سيكولوجية السعادة: صـ١٦١.
٢ - الذكاء العاطفي، دانييل جولمان، ترجمة ليلى الجبالي ، صـ ٢٦٥.
٣ - سنن الترمذيّ: أبواب المناقب، باب في بشاشة النبي ﷺ (ح ٣٦٤١) ٦٠١/٥.

وإن كان التبسم والضحك يأتيان للدلالة على السرور والرضا فإنَّهما قد يخرجان إلى أغراض بلاغية أخرى يقتضيها المقام وتؤدي في ذلك المقام دورها على الوجه الأتمِّ، كما سيتضح من خلال الدراسة التحليلية لمواضع تبسم النبيِّ ﷺ الواردة في الصحيحين.

المبحث الأول: الغرض الأساسيّ للتبسم (السرور والرضا)

من المواضع التي جاء فيها التبسم دالًا على الرضا ما رُوي عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: "شهدتُ من المقداد بن الأسود مشهدًا، لأنْ أكون صاحبه أحبّ إليَّ مما عُدِلَ به، أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنَّا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيتُ النبيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ" يَعْنِي: قَوْلَهُ.[1]

فقوله: "أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ " كناية عن سرور النبيِّ ﷺ مما قاله المقداد ﷺ "وقد فهم عبدالله بن مسعود هذا الإشراق وعرف دلالته، ولذلك عبَّر عنه بجملة (وسرَّه)"[2].

فقد عبَّر النبيُّ ﷺ عن سعادته البالغة دون أن ينطق بلفظٍ، ولكن جاء التعبير بما هو أبلغ من اللفظ وأحبّ إلى السامعين، وهو السرور وإشراق الوجه، حتى إنَّ سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ تمنَّى أن يكون هو صاحب الموقف فقال: "لأن أكون صاحبه أحبُّ إلي مما عُدِلَ به"، أي: مما وزن به من شيء يقابله، قال الكرمانيُّ: "أي من الثواب الذي عدل ذلك المشهد به.. والأولى أن يُقال: أي من كل شيء يقابل ويوازن به من الدنيويات" [3]

ولعلَّ النبيّ ﷺ آثر أن يوصل الرسالة إلى المتلقين عن طريق تعبيرات الوجه؛ لأنَّها قادرة على مخاطبة العقل، وملامسة القلب وتحريك العواطف وتوصيل الرسالة الربانية إلى المخاطب بأسلوب سهل.

---

١ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب قوله تعالى: "إذ تستغيثون ربَّكمْ فاستجَابَ لكمْ.." (ح٣٩٥٢) ٢٧٢/٢.

٢ - دراسات لسانية في الحديث النبويّ: د. أحمد عارف حجازي، دار فرحة للنشر والتوزيع، صـ١١٨

٣ - الكواكب الدراري (شرح صحيح البخاري) للكرماني، ١٥٦/١٥ .

كما أنَّ الرسالة النبوية المتمثلة في إشراق وجهه الشريف تحمل مضمونًا آخر وهو أنَّ النبيَّ ﷺ يريد أن يُفهم أصحابه أنَّه عازم على القتال، ومن ثمَّ فإنه يسعده ويسرّه أن يكون أصحابه معه على قلب رجلٍ واحد.

ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنَّ النبيَّ ﷺ دخل عليَّ مسرورًا، تبرق أسارير وجهه، فقال: "أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزًا نَظَرَ آنِفًا إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ"(١)

سُرَّ النبيُّ ﷺ سرورًا عظيمًا، مما قاله القائف، حتى دخل على عائشة رضي الله عنها تبرق أسارير وجهه; "لأنَّ في ذلك تأييدًا للحقِّ، وكان المشركون يقدحون في أسامة بن زيد وأبيه رضي الله عنهما لاختلاف ألوانهما، فكان أسامة أسودًا شديد السواد وأبوه زيد شديد البياض، لكن الأمر ليس كما قالوا، بل هم كاذبون في ذلك، واختلاف اللون لا يوجب شبهة إلا لذي هوى; فلعلَّ المخالف في اللون نزعه عرق"(٢)

فعلمت السيدة عائشة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ يحمل رسالة بُشرى، قبل أن يصل إليها نصّ الرسالة، وإنَّما علمت ذلك من تعبيرات وجه الشريف وهو تبرق أساريره من شدة السرور لما أعجبه من قول القائف، ففي رواية أخرى للبخاريّ "فسرَّ بذلك النبيُّ ﷺ وأعجبه، فأخبر به عائشة" (٣).

فكان لتعبير السرور البادي على وجهه الشريف دورًا كبيرًا في قراءة الرسالة، "فالانفعالات تزودنا بقراءة داخلية لما يجرى في النظام قراءة مكبرة بكل المعايير"(٤).

ولكون تعبيرات الوجه وانفعالاته تؤدي في حالات كثيرة ما يؤديه اللفظ، "استنبط الشافعية من استبشار النبي ﷺ في هذا الحديث إثبات النسب بالقيافة؛ لأنَّ الاستبشار تقرير"(٥) "فكان العمل به كالعمل بالقول الصادر منه ﷺ "(٦).

---

١ - صحيح البخاري: كتاب الفرائض، باب القائف (ح٦٧٧٠) ٣٠٢/٣، صحيح مسلم: كتاب الرضاع، باب العمل بإلحاق القائف الولد (١٤٥٩)، صـ٣٨٤ .

٢ - يُنظر: معالم السنن (شرح سنن أبي داود) للخطابي، المطبعة العلمية – حلب، ط١، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢م، ٢٧٥/٣.

٣ - صحيح البخاري (ح٣٧٣١) ٢٢٢/٢ .

٤ - سيكولوجية السعادة صـ١٧١ .

٥ - الأم للشافعي، دار المعرفة - بيروت، بدون طبعة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م . ٢٦٦/٦ .

٦ - التمسك بالسنة وأثره في استقامة المسلم، بقلم الشيخ :صالح بن سعود العلي ، مجلة البحوث الإسلامية العدد الثامن، ذو القعدة ١٤٠٣هـ " ١٩٤/٨ .

المبحث الثاني: الأغراض التي يخرج إليها التبسم أو الضحك

١- التعجب

لا شك أنَّ التعجب من أكثر الدلالات التي يعبر عنها التبسم؛ لأنَّه في الغالب يكون ملازمًا لدلالات أخرى كالملاطفة والمؤانسة والمعاتبة والتصديق والرفض، ومما جاء في الصحيحين من هذه الأحاديث:

ما رواه الشيخان عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أنَّ رفاعة القُرَظيّ طلَّق امرأته، فبتَّ طلاقها، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، فجاءت النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنَّها كانت تحت رفاعة، فطلقها آخر ثلاث تطليقات، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وإنه والله، ما معه إلا مثل الهدبة، وأخذت بهدبة من جلبابها، قال: فتبسم رسول الله ﷺ ضاحكًا، فقال: "لَعَلَّكِ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ، لَا، حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ، وَتَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ"[١].

قال النووي(٦٧٦هـ):" قال العلماء: إنَّ التبسم للتعجب من جهرها وتصريحها بهذا الذي تستحي النساء منه في العادة أو لرغبتها في زوجها الأول وكراهة الثاني والله أعلم"[٢].

٢- التصديق والتقرير

كما في حديث أبي سعيد الخدريّ ﷺ، قال النبيُّ ﷺ : "تَكُونُ الأَرْضُ يَوْمَ القِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً، يَتَكَفَّؤُهَا الجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ، نُزُلًا لِأَهْلِ الجَنَّةِ" فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: "بَلَى" قال: تكون الأرض خبزة واحدة، كما قال النبيّ ﷺ، فنظر النبيّ ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه"[٣].

نلاحظ في هذا الحديث أنَّ النبيّ ﷺ نظر إلى أصحابه أولًا؛ لتنبيههم وتشويقهم لاستقبال الرسالة التي جاءت عن طريق الضحك الذي يحمل معنى التعجب مما قاله اليهوديّ "وكيف أخبر عن كتابهم نظير ما أخبر به من جهة

---

١ - صحيح مسلم: كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثا لمطلقها حتى تنكح زوجا غيره (ح١٤٣٣) صـ٣٧٤، "صحيح البخاري" (٥٨٢٥،٦٠٨٤،٥٧٩٢،٥٣١٧،٥٢٦٥،٢٦٣٩).

٢ - شرح صحيح مسلم ٣/١٠-٤

٣ - صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة (٦٥٢٠) ٢٥٠/٣، "صحيح مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب نزل أهل الجنة (٢٧٩٢)، صـ ٧٤١.

الوحي"[١] والفرح لمطابقته لما ذكره ﷺ لهم، وفي ضحكه ﷺ تقرير لما ذكره اليهوديّ.

ومن ذلك ما رُوي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنَّا نجد: أنَّ الله يجعل السموات على إِصْبَع والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبيُّ ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ : "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ"[الزمر: ٦٧][٢].

فضحك النبيّ ﷺ في هذا الحديث يحمل دلالة التصديق والتعجب والتقرير لما قاله الحبر اليهوديّ، فهو هنا بمعنى: صدقت إنَّ الله تعالى ليفعل ذلك، ثم أكَّد قوله بتلاوة قول الله تعالى: "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" ويوضح ذلك ما جاء في رواية أخرى عند البخاري، قال عبد الله : "فلقد رأيت النبيَّ ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه تعجبًا وتصديقًا لقوله"[٣].

٣- الموافقة

من ذلك ما رُوي عن أبي هريرة ﷺ، قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ، فقال: هلكت، يا رسول الله، قال: "وَمَا أَهْلَكَكَ؟" قال: وقعت على امرأتي في رمضان، قال: "هَلْ تَجِدُ مَا تُعْتِقُ رَقَبَةً؟" قال: لا، قال: "فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟" قال: لا، قال: "فَهَلْ تَجِدُ مَا تُطْعِمُ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟" قال: لا، قال: ثم جلس، فَأُتي النبيُّ ﷺ بعَرَق فيه تمر، فقال: "تَصَدَّقْ بِهَذَا" قال: أفقرَ منَّا؟ فما بين

---

١ - ينظر: عمدة القاري ١٠٣/٢٣، و"مرقاة المفاتيح" ٣٥١٢/٨، و" الكوثر الجاري" ١٨٧/١٠.

٢- صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله:" "وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ" (ح٤٨١١) ٤٨٧/٢، ومكرر في (٧٤١٥،٧٤١٤، ٧٥١٣) و "صحيح مسلم" : كتاب صفة القيامة والجنة والنار(ح ٢٧٨٦)، صـ٧٤٠.

٣ - صحيح البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (ح٧٥١٣) ٤٧٦/٣.

لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: "اذْهَبْ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ"[1].

حمل ضحك النبيّ ﷺ في هذا الحديث كثيرًا من الدلالات: "فيُحتمل أن يكون ضحكه- لتباين حال الأعرابي، حيث كان في الابتداء متحرقًا متلهفًا حاكمًا على نفسه بالهلاك، ثم انتقل إلى طلب الطعام لنفسه"[2].

وقد يكون الضحك تعجبًا "من حال الرجل في مقاطع كلامه وحسن تأتيه وتلطفه في الخطاب وحسن توسله في توصله إلى مقصوده "أو من رحمة الله تعالى، وتوسعته عليه، وإطعامه له هذا الطعام، وإحلاله له بعد أن كُلِّف إخراجه"[3].

ويضيف الباحث إلى ما سبق أنَّ ضحك النبيِّ ﷺ جاء تهدئة للرجل الذي أتى إلى النبيّ ﷺ وهو يشعر بالهلاك، وحمل هذا الضحك رسالة يشعر من خلالها المُتلقي أنَّ ما سيُقال له - اذْهَبْ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ- لم يكن حياءً وليس فيه وجدٌ من النبي ﷺ عليه.

الفصل الثاني
التعبيرات السلبية (الغضب)

الغضب طبيعة وفطرة بشرية فطرها الله ﷻ في بني آدم, وقد حذَّر منه رسول الله ﷺ في كثير من الأحاديث الشريفة, فعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رجلًا قال للنبيِّ ﷺ: أوصني قال: "لَا تَغْضَبْ" فردد مرارًا قال "لَا تَغْضَبْ"[4].

وقد كان النبيّ ﷺ يكظم غيظه ولا ينفذه، والصحابة المتلقون المشاهدون لهذه الهيئة النبوية الشريفة أدركوا مغزى ذلك وفهموا دلالته من خلال تغير لون وجهه الشريف، فكانوا يعرفون مواضع غضب النبي ﷺ .

ولا شك أنَّ ظهور علامات الغضب على الوجه حين رؤية المكاره أوكد في الزجر عنها والبعد عن فعلها، وفيها تبليغ يناسب المقام الواردة فيه، إذ أن مقام

---

١ - صحيح البخاري : كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان (ح ١٩٣٦)٤٢٢/١، ومكرر في (٦٧٠٩، ٢٦٠٠، ٦٧١١) ، صحيح مسلم: كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان (ح١١١١) صـ٢٨٢. واللفظ لمسلم .

٢ - إحكام الأحكام -١٦/٢ .

٣ - ينظر: إحكام الأحكام لابن دقيق العيد ١٦/٢، فتح الباري لابن حجر ١٧١/٤- وعمدة القاري ٣٣/١١، و الكوثر الجاري ٢٨٦/٤

٤ - صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٦١١٦) ١٦١/٣.

الغضب أضيق من أن يناسبه الكلام الكثير، وسنرى ذلك بإذن الله وتوفيقه في تحليل مواضع غضب النبيّ ﷺ مما ورد في الصحيحين.

وأول موضع نتحدث عنه ما جاء عن زيد بن خالد الجهني أنَّ النبيَّ ﷺ سأله رجل عن اللُّقَطَة، فقال: "اعْرِفْ وِكَاءَهَا، أَوْ قَالَ وِعَاءَهَا، وَعِفَاصَهَا، ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً، ثُمَّ اسْتَمْتِعْ بِهَا، فَإِنْ جَاءَ رَبُّهَا فَأَدِّهَا إِلَيْهِ" قال: فضالَّة الإبل؟ فغضب حتى احمرت وجنتاه، أو قال احمر وجهه، فقال:" وَمَا لَكَ وَلَهَا، مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرِدُ المَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ، فَذَرْهَا حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا..."(١)

غضب النبيّ ﷺ من السائل، لأنَّه ﷺ كان يُعلِّم أصحابه القياس والاستنباط، ولكن هذا السائل لم يُحسن القياس فقاس الإبل على اللقطة، وهو قياس على غير النظير، يقول الخطابيُّ(٣٨٨هـ): " إنَّما كان غضبه ﷺ استقصارًا لعلم السائل وسوء فهمه، إذ لم يراع المعنى المشار إليه ولم يتنبه له، فقاس الشيء على غير نظيره، فإن اللقطة إنَّما هي اسم للشيء الذي يسقط من صاحبه ولا يدري أين موضعه، وليس كذلك الإبل، فإنَّها مخالفة للقطة اسمًا وصفة، فإنَّها غير عادمة أسباب القدرة على العود إلى ربِّها لقوة سيرها، وكون الحذاء والسقاء معها، لأنَّها ترد الماء ربعًا وخمسًا، وتمتنع من الذئاب وغيرها من صغار السباع، ومن التردِّي وغير ذلك"(٢).

فالأعرابيّ يعرف استغناء الإبل عن الرّاعي "بما ركب في طباعها من الجلادة على العطش وتناول المأكول بغير تعب لطول عنقها فلا تحتاج إلى ملتقط"(٣)، لذلك غضب النبيّ ﷺ وأجاب عن الاستفهام باستفهام إنكاريٍّ "وهذا النوع من الاستفهام يستخدم حال كون السائل لا ينبغي أن يصدر منه هذا السؤال"(٤) فقال: "ما لك ولها؟"

وقد استنبط العلماء من هذا الغضب النبويّ "جواز الفتوى والحكم في حال الغضب وأنَّه نافذ لكن يُكره ذلك في حقِّنا ولا يُكره في حقِّ النبيّ ﷺ لأنَّه لا يخاف عليه في الغضب ما يخاف علينا والله أعلم"(٥).

---

١ - صحيح البخاري: كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم (ح ٩١) ٣٤/١، ومكرر(٢٣٧٢-٢٤٢٩-٢٤٣٦-٦١١٢)، و "صحيح مسلم" كتاب اللقطة (ح١٧٢٢) صـ٤٧٤،

٢ - يُنظر: عمدة القاري ١١٠/٢ .

٣ - فتح الباري، ابن حجر ٨٣/٥ .

٤ - ملامح بلاغية لجواب الاستفهام في الحديث النبوي، بحث في مجلة العرب، ج١١- ١٢ س٤١ : ص ٩١.

٥ - شرح النووي ٢٤/١٢ .

وقد غضب النبيّ ﷺ حتى تلوَّن وجهه حين خاصم رجلٌ من الأنصار الزبير بن العوام عند النبيّ ﷺ في شِرَاجِ الحَرَّة، التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سَرِّح الماء يمرُّ، فأبى عليه؟ فاختصمَا عند النبيّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير:" اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ" فغضب الأنصاريُّ، فقال: أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: "اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ"..[١].

تلوَّن وجه رسول الله ﷺ أي: تغير، وهذا كناية عن الغضب، لأنَّه ﷺ يحكم بأمر الله وشرعه، وفي كلام هذا الرجل انتهاك لحرمة النبوة، فغضب انتقاماً لله تعالى"[٢].

وخاصة أنَّه ﷺ قضى أولًا بالإيثار والفضل، فأمر الزبير أن يسقي أولًا "وذلك لأنَّ أرضه كانت في فم الوادي فهو أولى بتمام السقي"[٣]، ثم يرسل الماء إلى جاره، "فلمَّا قال الأنصاريُّ ما قال وجهل موضع حقه أمر الزبيرَ بأن يأخذ تمام حقه ويستوفيه فإنَّه أصلح له وفي الزجر أبلغ"[٤].

وقد حمل غضب النبي ﷺ في هذا الموضع بلاغة وبيانًا، يفوقان بلاغة الكلام وبيانه ومن ذلك :

- أنَّه ﷺ لم يكن يغضب لنفسه أبدًا، وإنما كان يغضب إذا انتهكت حُرمات الله .
- أنَّه ﷺ يحكم بالإيثار والفضل أولًا، فإذا لم يرضَ المتخاصمون بذلك، حكم بالحقِّ والعدل.
- جواز توبيخ مَنْ جفا على الإمام والحاكم ومعاقبته، لأنَّ النبيَّ ﷺ عاقبه على قوله: "أن كان ابن عمتك" بأن استوعى للزبير حقَّه ووبَّخه الله في كتابه بأن نفى عنهم الإيمان حتى يرضوا بحكمه، فقال:" فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ" [النساء: ٦٥]"[٥].
-أنَّه يجوز له ﷺ أن يحكم في حال غضبه؛ لأنَّه معصوم عن الخطأ والزلل.

---

١ - صحيح البخاري: كتاب المساقاة، باب سكر الأنهار (٢٣٥٩) ٥١٥/١، ومكرر (ح: ٢٣٦٢-٢٧٠٨-٤٥٨٥)، "صحيح مسلم" كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه ﷺ (ح٢٣٥٧)، صـ٦٣٣، و(شراج) جمع شرج وهو مسيل الماء من المرتفع إلى السهل، (سرح) أرسله وسيبه، (الجدر) الحواجز التي تحبس الماء، يُنظر: صحيح البخاري هامش١١١/٣.

٢ - ينظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع لابن العثيمين،٣٠١/١٥ . بتصرف

٣ - يُنظر: بيان المعاني٥٧٢/٥، و"العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين"، صـ ١٤٠ .

٤ - يُنظر: "حاشية السندي على سنن ابن ماجة" ١١/١، و" اللطائف من دقائق المعارف في علوم الحفاظ الأعارف" ٢٠٣/١ .

٥ - شرح ابن بطال ٥٠١/٦

ومن ذلك ما رُوي عن عمران بن حصين رضي الله عنهما، قال: جاء نفر من بني تميم إلى النبيّ ﷺ، فقال: "يَا بَنِي تَمِيمٍ أَبْشِرُوا" قالوا: بشرتنا فأعطنا، فتغير وجهه، فجاءه أهل اليمن، فقال "يَا أَهْلَ اليَمَنِ، اقْبَلُوا البُشْرَى إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ" قالوا: قبلنا، فأخذ النبيّ ﷺ يحدث بدء الخلق والعرش.."[١]

يقصد النبيّ ﷺ بالبشرى هنا أن يخبرهم عن وجود الله تعالى قبل كل موجود، "وسماه بشرى؛ لأنَّه يتعلق بتوحيد الربوبية الذي هو أصل من أصول العقيدة الإسلامية التي يترتب عليها الفوز بالجنة والنجاة من النار"[٢].

ولكنْ بنو تميم - جريًا على عاداتهم في أنَّ البشرى إنَّما كانت تستعمل في فوائد الدنيا[٣]- قالوا:" بشرتنا فأعطنا" فغضب النبيّ ﷺ حتى رُئِي ذلك في وجهه، وسبب غضبه ﷺ استشعاره بقلة علمهم لكونهم علقوا آمالهم بعاجل الدنيا الفانية وقدموا ذلك على التفقّه في الدين الذي يحصل لهم ثواب الآخرة الباقية، قال الكرماني:" وغضب حيث لم يهتموا بالسؤال عن حقائق كلمة التوحيد والمبدأ والمعاد ولم يعتنوا بضبطها ولم يسألوا عن موجباتها والموصلات إليها"[٤].

وقد يكون غضب النبي ﷺ لكونه لم يحضره ما يعطيهم فيتألَّفهم به، وقد جاءوا للاستعطاء، قال الطيبيّ: قالوا: "بشرتنا فأعطنا"، أي بشرتنا بالتفقّه وإنَّما جئنا للاستعطاء فأعطنا"[٥].

وقد كان للغضب البادي على وجهه الشريف تأثير كبير على الصحابة، فقد فهموا منه المعاتبة على فعلهم، حتى إنَّ أهل اليمن لما بشرهم النبي ﷺ قالوا: قبلنا يا رسول الله ".

ومن ذلك ما رُوي عن أبي هريرة ﷺ، قال: بينما يهوديّ يعرض سلعته، أُعطِي بها شيئًا كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فقام فلطم وجهه، وقال: تقول: والذي اصطفى موسى على البشر، والنبيّ ﷺ بين أظهرنا؟ فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إنَّ لي ذمة وعهدًا، فما بالُ

---

١ - صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ"[الروم: ٢٧] (٣١٩٠) ١٠٧/٢، ومكرر(ح:٣١٩١، ٤٣٦٥، ٤٣٨٦، ٧٤١٨).

٢ - منار القاري، ١٤٤/٤

٣ - شرح ابن بطال: ٤٥٠/١٠

٤ - الكواكب الدراري: ١٥١/١٣ .

٥ - الكاشف عن حقائق السنن ٣٥٩٩/١١، و "عمدة القاري ١٠٨/١٥.

فلان لطم وجهي، فقال: " لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ" فذكره، فغضب النبيّ ﷺ حتى رُئِيَ في وجهه، ثم قال: " لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ.." الحديث[1]

غضب النبيّ ﷺ مما فعله الصحابي؛ لأنَّ لليهود ذمة وعهدًا، وفيما حدث انتهاك لهذا العهد، فأراد النبيّ ﷺ أن يقول لهم: لا يجوز التعديّ على أهل الذمة.

والرسول ﷺ بهذا الغضب يعلمنا دروساً تربوية عظيمة، فهو عليه الصلاة والسلام يُعلِّم أصحابه ويعلمنا معهم كيف يكون احترام أنبياء الله ومعرفة منازلهم، وإنَّ اختلافنا مع اليهود والنصارى لأجل كفرهم وشركهم، وتحريفهم لكتبهم، وكفرهم وتكذيبهم بمحمد ﷺ كل ذلك لا يجعلنا نتعدى أو نظلم فنتكلم بكلام قد يشم منه التنقص لأنبياء الله الصادقين.

ويرى الباحث أنَّ في غضب النبي ﷺ عتابًا للصحابيِّ الذي غضب من أجل النبيّ ﷺ، فلو لم يرسل النبي ﷺ هذه الرسالة لتكررت تلك الواقعة، وخاصة أنَّ المجتمع الذي يعيشون فيه تتعدد فيه الملل، فأراد النبي ﷺ أن يئد الفتنة قبل انتشارها.

الخاتمــة

الحمد لله وليِّ الفضل والنعم، والصلاة والسلام على من بعثه بالرسالة المعجزة وآتاه جوامع الكلم. وبعد

فقد انتهيت بفضل وتوفيق من الله ﷻ من هذا البحث الذي تناول موضوع مهم يمسّ جانبين مهمين من جوانب بلاغة الحديث النبويِّ الشريف: الأول اللغة غير المنطوقة ودورها في توصيل الرسالة، الثاني: مدى استعمال النبيِّ ﷺ لهذه اللغة وكيفية توظيفها لتؤدي دورًا عظيمًا في التبليغ، وقد توصلت من خلال هذا البحث إلى بعض النتائج منها:

- للوجه لغته الخاصة التي تعبّر كاللسان، وغالبًا ما تكون المشاعر الإنسانية مقروءة في صفحاته.
- حرْص الصحابة رضوان الله عليهم على نقل كل وسيلة بصرية كانت أو سمعية من شأنها أن تساعد على زيادة الفهم، وتأكيد المعنى الذي يريده النبي ﷺ.

---

١ - صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى:" وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ"[الصافات: ١٣٩] (ح٣٤١٤) ١٥٧/٢ و"صحيح مسلم " كتاب الفضائل، باب فضائل موسى ﷺ (ح٢٣٧٣)، صـ٦٣٨ .

- وظَّف النبيّ ﷺ انفعالاته توظيفًا بليغًا يخدم به دعوته ويؤثر به في المتلقين، فهي مصدر من مصادر التشريع.
- تعبيرات الوجه أصدق في كثير من الأحايين من اللفظ المنطوق .
- لعلامات الوجه دورٌ كبير في بلاغة المُلقي فهي تساعده على أداء رسالته على الوجه الصحيح .
- يلعب السياق دور المفسِّر والمترجم لما يبدو على الوجه من علامات، حيث تصعب قراءة الانفعالات خارج سياقها، فخروج التعبير الوجهيّ خارج سياقه يجعله غير ذي معنى محدد.
- يجب على المُلقي أن يتفقد تعبيرات وجه المتلقين، حتى يستطيع أن يراعي أحوالهم، ويختار ما يناسبهم.
- أنَّ النبيَّ ﷺ كان بشوشًا ولم يكن يغضب لنفسه أبدًا، وإنما كان يغضب إذا انتُهكت حرمات الله تعالى .

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: ابن دقيق العيد (٧٠٢هـ)، مطبعة السنة المحمدية، بدون طبعة وبدون تاريخ.
- الأمّ: أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ (٢٠٤هـ)، دار المعرفة - بيروت، بدون طبعة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
- البيان بلا لسان: مهدي عرار، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٤٢٨ ه.
- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير(٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري): أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الصفا، ط١، ٢٠٠٣م
- دراسات لسانية في الحديث النبويّ: د. أحمد عارف حجازي، دار فرحة للنشر والتوزيع .

- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: محمد علي إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (١٠٥٧هـ)، دار المعرفة، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط٤، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
- الذكاء العاطفي: دانييل جولمان، ترجمة ليلى الجبالي ، عالم المعرفة ٢٠٠٠م.
- الزهرة : أبو بكر البغدادي، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٥م.
- سيكولوجية السعادة، مايكل أرجايل، ترجمة د. فيصل عبد القادر يوسف، عالم المعرفة، ١٩٩٣م.
- شرح صحيح البخاري لابن بطال: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف (٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية- الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م
- الشرح الممتع على زاد المستقنع: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٤٢١هـ)، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٢ - ١٤٢٨ هـ.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: بدر الدين العينيّ (٨٥٥هـ): دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.
- فقه اللغة وسر العربية: أبو منصور الثعالبي (٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- القول المفيد على كتاب التوحيد: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٤٢١هـ)، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط٢, محرم ١٤٢٤هـ.
- الكاشف عن حقائق السنن (شرح الطيبي على مشكاة المصابيح): شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبيّ (٧٤٣هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض)، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

- اللغة واختلاف الجنسين: أحمد مختار عمر، مكتبة لسان العرب ط١ ١٩٩٦م
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (١٠١٤هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول ﷺ (صحيح مسلم): أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الصفا ط١ ٢٠١٤.
- منهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٣٩٢.
- معالم السنن (شرح سنن أبي داود): أبو سليمان حمد بن الخطاب البستي المعروف بالخطابيّ (٣٨٨هـ)، المطبعة العلمية – حلب، ط١، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢م.
- منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري: حمزة محمد قاسم، راجعه: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

المجلات

- لغة الجسم وأثرها في الإبانة: نماذج من التراث اللغويّ والبلاغيّ: مهدي أسعد عرار، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجّلد ٣٣ ، العدد ١، ٢٠٠٦،.
- صور الكناية في الكلام النبوي الشريف: حجت رسولي، إضاءات نقدية (فصلية محكّمة) السنة الثالثة – العدد التاسع – ربيع ١٣٩٢ ش/ آذار ٢٠١٣م.
- التمسك بالسنة وأثره في استقامة المسلم: صالح بن سعود العلي، مجلة البحوث الإسلامية العدد الثامن، ذو القعدة ١٤٠٣هـ ".